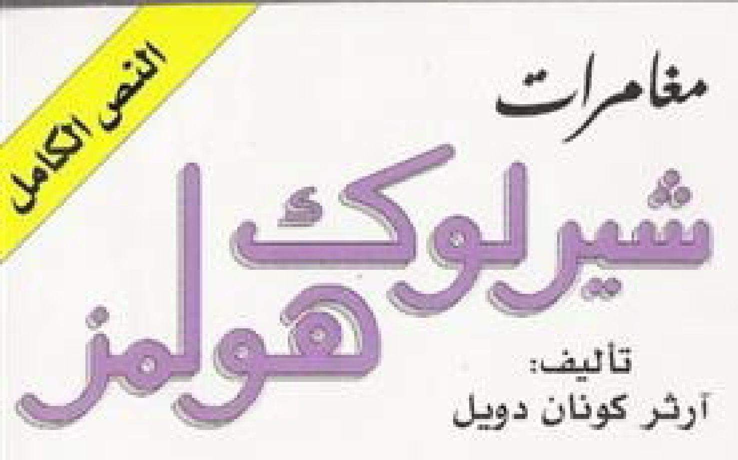




٦

ذو الشَّفَةِ المُلتَوية

S.P



الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بالرسومات الأصلية

6



The Adventures of Sherlock Holmes





مغامرات
شيرلوك هولمز
تأليف: آرثر كونان دويل

The Man with the Twisted Lip

ISBN 2-1957-3321-6









ذو الشَّفَةِ المُلتَوِيَة

كان السيد ويتني مدمناً على الأفيون، وقد نشأت لديه هذه العادة كما فهمت نتيجة نزوة حمقاء عندما كان في الكلية، ثم اكتشف -كما فعل الكثيرون قبله- أن اتباع هذه العادة أسهل من التخلص منها، فاستمر عبداً لهذا المخدّر لسنوات عديدة حتى أصبح هدفاً لخليط من الشفقة والرعب عند أصدقائه وأقاربه، وأستطيع الآن تخيُّله بوجهه الأصفر الشاحب وجفنيه الذابلَين وبؤبؤَي عينيه الصغيرَين جداً في حجم رأس الدبوس وهو يجلس متكوّماً على أحد الكراسي كصورة لحطام وبقايا رجل نبيل.

دقّ الجرس في إحدى ليالي شهر حزيران (يونيو) عام ١٨٨٩ في الوقت الذي يبدأ فيه المرء في التثاؤب والنظر إلى الساعة، فاعتدلت جالساً في مقعدي ووضعَت زوجتي ما تحيكه على حجرها وظهر على وجهها الإحباط وقالت: مريض! ستُضطرّ إلى الخروج.

تأوهت حيث كنت قد عدت للتوّ من يوم عمل مرهق، وفُتح الباب وسمعنا أصواتاً وبضع كلمات سريعة، ثم وقع خطوات، وبعد ذلك فُتح باب الغرفة

ودخلت سيدة تضع خماراً وتلتفّ بشيء داكن اللون. بدأت قائلة: أرجو أن تعذروني لزيارتي لكم في مثل هذا الوقت المتأخر.

ثم فقدت أعصابها فجأة واندفعت إلى الأمام لتلقي بذراعيها حول عنق زوجتي وهي تبكي على كتفيها، ثم صاحت قائلة: آه! أنا في مشكلة وأحتاج إلى مساعدة بسيطة.

قالت زوجتي وهي تسحب خمارها: يا للعجب! إنها كيت ويتني. لقد أخفتِني يا كيت! لم أتعرف عليك حين دخلت.

– لم أعرف ما الذي عليّ فعله فأتيت إليك مباشرة.

كان هذا هو الوضع دائماً، فالناس في حزنهم يلجؤون إلى زوجتي كما يلجأ العصفور إلى المنارة. قالت لها زوجتي: كان من اللطيف أن تأتي، والآن لا بدّ أن تشربي بعض الشاي ثم تجلسي هنا بهدوء لتقصّي علينا كل شيء، أم لعلك تفضّلين أن يذهب جيمس لينام؟

– لا، لا؛ أنا أريد نصيحة الدكتور ومساعدته أيضاً. الأمر يتعلق بزوجي، فهو لم يَعُد إلى المنزل منذ يومين وأنا قلقة عليه كثيراً.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تتحدث إلينا فيها عن زوجها. كانت تتحدث إليّ كطبيب وإلى زوجتي بوصفها صديقة قديمة وزميلة دراسة. وحاولنا تهدئتها والتخفيف عنها بما استطعنا من كلمات، فسألتها إن كانت تعرف مكان زوجها وهل من الممكن أن نعيده إليها.

بدا الأمر ممكناً إذ كانت لديها معلومات مؤكّدة بأن زوجها حين انتابته النوبة مؤخَّراً قام باستخدام وكر للأفيون يقع في أقصى شرق المدينة. كانت طقوسه الغريبة حتى الآن تقتصر على يوم واحد حيث يذهب إلى هذا الوكر لتعاطي المخدّر ثم يعود في المساء مرتعشاً محطّماً، أمّا الآن فقد كان تحت تأثير المخدّر لمدّة ثمانٍ وأربعين ساعة متصلة، ولا شك أنه يرقد هناك بين حثالة المجرمين يستنشق السمّ أو ينام حتى يزول تأثيره. كانت متأكدة من أننا سنجده هناك في حانة غولد في آخر زقاق سواندام، ولكن ما الذي يمكنها فعله وهي الشابة الخجولة؟ كيف تشقّ طريقها في مثل ذلك المكان لتُخرِج زوجها من بين الأشرار الذين يحيطون به؟

كانت هذه هي القضية. وبالطبع لم يكن أمامي إلا حل واحد لها، فهل أستطيع إلا أن أرافقها إلى ذلك المكان؟ ولكن بعد إعادة التفكير وجدت أنه لا

داعي لمجيئها أصلاً، فقد كنت مستشار السيد ويتني الطبي، وهكذا فلديّ سلطة عليه، كما أنني سأتمكن من معالجة الأمر بطريقة أفضل إن ذهبتُ وحيداً.

وعدتها بأن أرسله إلى منزله في عربة أجرة خلال ساعتين لو كان حقاً في العنوان الذي أعطته لي. وهكذا وفي خلال عشر دقائق كنت قد تركت مقعدي المريح وغرفة جلوسي المبهجة وانطلقت باتجاه الشرق مستقلاً عربة صغيرة في مهمّة غريبة -كما بدا لي في ذلك الوقت- بالرغم من أن المستقبل سيُظهِر مدى غرابتها.

في المرحلة الأولى لمغامرتي لم أواجه أية صعوبات كبيرة، فزقاق سواندام ممرّ حقير يكمن خلف أرصفة الميناء العالية التي تصطف على الجانب الشمالي للنهر شرقيّ جسر لندن، ووجدت بين محل للملابس المستعمَلة وإحدى الحانات فتحة سوداء كفوّهة الكهف ندخلها نزولاً على درجات شديدة الانحدار، وهناك وجدت الوكر الذي أبحث عنه، فأمرت سائق سيّارة الأجرة بالانتظار ونزلت الدرَج الذي كان منحوتاً من وسطه بسبب الوطء المستمرّ لأقدام السكارى، وقد وجدت المزلاج على ضوء مصباح زيتي معلّق فوق الباب فدخلت إلى غرفة حقيرة طويلة معبّقة بدخان الأفيون البنّي الكثيف وفيها مقاعد

خشبية مثل مقدّمة سفينة مهاجرة.

كان المرء يستطيع أن يرى خلال العتمة لمحات لأناس يرقدون في أوضاع غريبة عجيبة؛ أكتاف مقوّسة وركب محنيّة ورؤوس مائلة إلى الخلف وذقون متجهه إلى الأعلى، وعيون داكنة تفتقد البريق هنا وهناك تنظر إلى كل قادم جديد، كما لمعت دوائر ضوء حمراء صغيرة من بين الظلال السوداء تبرق تارة وتخبو تارة أخرى، والسمّ المحترق يزيد وينقص في طاسات الأنابيب المعدنية.

بقي أغلب الناس صامتين في حين أخذ بعضهم يتمتم لنفسه وآخرون يتحدث بعضهم مع بعض بصوت غريب منخفض رتيب ومحادثاتهم تتدفق ثم تتوقف فجأة ليسود الصمت، وكل واحد يهمهم بأفكاره الخاصّة ولا يلقي بالاً لكلمات جاره، وفي آخر الغرفة رأيت حاملاً نحاسياً للجمر المشتعل وإلى جانبه جلس رجل عجوز نحيل طويل على كرسي خشبي صغير له ثلاثة أرجل، وكان يضع فكه على قبضتيه ومرفقيه على ركبتيه وهو يحدّق إلى النار.

عندما دخلت أسرع خادم آسيوي شاحب ومعه غليون وبعض المخدّر وأشار إلى مكان خالٍ، فقلت: شكراً، لم أحضر لأبقى، بل لي صديق هنا هو السيد ويتني، وأنا أرغب بالتحدث إليه.

لاحظت حركة وصياحاً في الناحية اليمنى، وحين نظرت عبر العتمة رأيت ويتني يحدّق إليّ وهو شاحب منهَك قذر. قال: يا إلهي؛ إنه واطسون!

كان في حالة مثيرة للشفقة بسبب تأثير المخدّر، حيث كان يرتعش بشدة، ثم سألني: كم الساعة الآن يا واطسون؟

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- الحادية عشرة تقريباً.

- وفي أي يوم نحن؟

- الجمعة التاسع عشر من حزيران (يونيو).

- يا إلهي! لقد ظننت أنه الأربعاء! إنه بالفعل الأربعاء، لماذا تريد إخافتي؟

ثم وضع وجهه على ذراعيه وبدأ بالنحيب بصوت عالٍ فقلت له: أؤكّد لك أنه يوم الجمعة يا رجل، وقد كانت زوجتك تنتظرك طوال هذين اليومين. يجب أن تشعر بالخجل من نفسك!

- وأنا كذلك بالفعل، ولكن لا بدّ أن الأمر قد اختلط عليك يا واطسون، فأنا لم أمضِ هنا إلاّ بضع ساعات قليلة. لقد دخّنت المخدّر ثلاث مرات أو أربعاً أو... لقد نسيت كم عددها، ولكنني سأعود إلى المنزل معك؛ لا أريد أن تقلق كيت... كيت العزيزة المسكينة. ساعدني لأقف، هل معك عربة أجرة؟

- نعم، إنها تنتظر.

- سأذهب فيها إذن. ولكن لا بدّ أنني مدين ببعض النقود. اسأل بكم أنا مَدين لهم يا واطسون، فأنا في حالة مزرية ولا أستطيع القيام بشيء لنفسي.

مشيت عبر الممر الضيق بين صفٍّ مزدوج من النائمين وأنا أكتم أنفاسي حتى لا أستنشق دخان المخدّر الكريه الذي يسلب العقل، وبحثت حولي عن المدير، وفيما أنا أمرّ بجوار الرجل الطويل الجالس عند حامل الجمر شعرت بشخص يشدّ طرف معطفي ويهمس بصوت خفيض: تجاوَزْني ثم انظر إلى الخلف باتجاهي.

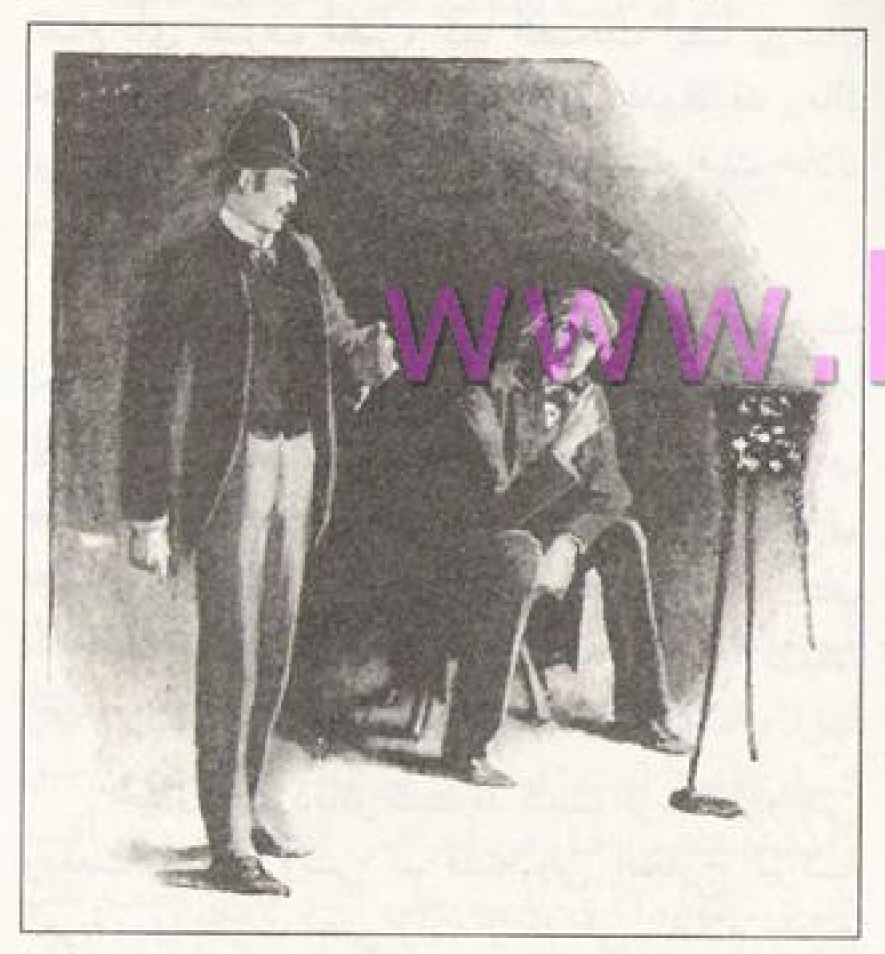
سمعت الكلمات بوضوح شديد، فنظرت إلى الأسفل. لم يكن من الممكن أن تصدر هذه الكلمات إلاّ من الرجل العجوز الموجود بجانبي، ولكنه كان يجلس في تلك اللحظة منصرفَ الذهن تماماً، وكان نحيلاً جداً كثير التجاعيد محني الظهر بسبب تقدمه في السنّ، في حين يتدلى غليون الأفيون بين ركبتيه كما لو كان قد سقط من فرط التعب من بين أصابعه.

خطوت خطوتين إلى الأمام ثم نظرت إلى الخلف، وقد استلزم الأمر كل قدرتي على ضبط النفس حتى أمنع نفسي من إطلاق صيحة دهشة؛ كان الرجل قد أدار ظهره بحيث لا يراه أحد غيري، وعندها انتصبت قامته وتلاشت تجاعيد وجهه واستعادت عيناه البليدتان تألّقهما، فلم يكن الرجل الذي يجلس بجوار النار ويضحك على ذهولي إلا شيرلوك هولمز! أشار لي بحركة بسيطة لأقترب منه، وبعدها أدار وجهه

على الفور نصف استدارة باتجاه الجماعة مرّة أخرى وقد انهار في حال من الشيخوخة المرتعشة بشفتين مرتخيتين!

همست قائلاً: هولمز! ما الذي تفعله في هذا الوكر بالله عليك؟

أجاب قائلاً: حاول التحدّث بصوت منخفض



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

قدر استطاعتك فسمعي ممتاز، ولو تكرمت بالتخلص من صديقك الأبله فسوف يسعدني أن أتحدّث إليك قليلاً.

- معي عربة أجرة في الخارج.

- أرجو أن ترسله فيها إلى المنزل، ويمكنك أن تطمئنّ عليه فهو يبدو منهَكاً جداً ولن يستطيع القيام بأي تصرف مُضِرّ، كما أنصحك أيضاً بإرسال خبر لزوجتك مع السائق لتخبرها بأن قدَرك قد رماك في طريقي، ولو انتظرتني في الخارج فسأوافيك خلال خمس دقائق.

كان من الصعب رفض أيّ طلب لهولمز، حيث تكون طلباته دائماً محدَّدة جداً ومقدَّمة بطريقة يكتنفها الغموض. وعلى أية حال فقد شعرت بأن مهمتي ستكون قد أُنجزَت فعلياً حالما يصبح السيد ويتني محبوساً في عربة الأجرة، أما عن الباقي فأنا لا أتمنى إلا أن أشترك مع صديقي في إحدى مغامراته الغريبة التي تشكّل شرطاً طبيعياً لأسلوب حياته.

خلال بضع دقائق كنت قد كتبت الرسالة لزوجتي ودفعت فاتورة ويتني ثم قدته إلى الخارج ليركب العربة، وانتظرت حتى رأيته يبتعد في الظلام. خرج شخص هَرِم من وكر الأفيون بعد وقت قصير جداً،

وبعدها وجدت نفسي أسير في الشارع مع شيرلوك هولمز. وقد مشي يجرّ قدميه مسافة شارعَين وظهره محنيّ وقدمه غير ثابتة، وبعد ذلك نظر بسرعة حوله ثم شدّ قامته وانفجر في نوبة من الضحك العنيف!

قال: لعلك -يا واطسون- تتصور أنني قد صرت من مدخّني الأفيون؟

- لقد فوجئت بالتأكيد حين وجدتك هناك.

- ولكن ليس أكثر من دهشتي حين رأيتك.

- لقد جئت بحثاً عن صديق.

- أمّا أنا فقد جئت بحثاً عن عدوّ.

- عدو!

- نعم، واحد من أعدائي الاعتياديّين، أو أن عليّ القول: فريستي الاعتيادية. باختصار أنا في وسط واحد من تحقيقاتي الغريبة جداً يا واطسون، وقد تمنيت أن أجد دليلاً في الكلام المستطرَد المتفكك لهؤلاء السّكارى مثلما فعلتُ من قبل، ولم تكن حياتي لتساوي شيئاً لو تعرّفوا عليّ في ذلك الوكر لأنني سبق واستخدمته من قبل في أغراضي الخاصة، وقد أقسم النوتي النذل الذي يديره على الثأر مني. خلف تلك البناية باب خفي بالقرب من منعطف مرفأ بول يمكن

أن يحكي بعض الحكايات الغريبة عما يمرّ عبره في الليالي المظلمة.

- ماذا؟! أنت لا تعني جثثاً!

- بلى، جثث يا واطسون. لو أخذنا ألف جنيه عن كل مسكين لقي حتفه في ذلك الوكر لأصبحنا أثرياء. إنه أسوأ مصيدة للقتل على ضفاف النهر، وأخشى أن يكون نيفيل سينت كلير قد دخله بلا عودة. حسناً، يجب أن تكون عربتنا هنا.

ثم وضع إصبعين بين أسنانه وصفر بحدّة، وهي علامة ردّ عليها أحدهم بصفارة مماثلة آتية من بعيد تبعها صوت قعقعة عجلات ورنين لحوافر أحصنة.

* * *

اندفعت العربة الطويلة ذات الحصانين والمقعدين المتقابلين عبر الظلام ملقية بقمعين من الضوء الأصفر الذهبي الصادر عن المصباحين الجانبيّين، وعندها قال هولمز: والآن يا واطسون ستأتي معي، أليس كذلك؟

- إذا كانت لي فائدة.

- الصاحب المؤتمَن دائماً ما تكون له فائدة. إن غرفتي في «سيدارز» غرفة ذات سريرين.

- سيدارز؟

- نعم، إنه منزل السيد سينت كلير، وأنا أقيم فيه في أثناء قيامي بهذا التحقيق.

- أين هو إذن؟

- بالقرب من «لي» في «كِنْت». أمامنا سبعة أميال



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

لنقطعها بالعربة.

- ولكنني ما زلت لا أعرف شيئاً عن الأمر.

- بالطبع، لكنك ستعرف كل شيء عمّا قريب. اصعد هنا في الأعلى. حسناً يا جون، خذ نصف كراون وانتظرني غداً في نحو الساعة الحادية عشرة، فلن نحتاجك الليلة. اترك الحصان هنا، والآن إلى اللقاء.

ضرب هولمز الحصان بالسوط فاندفعنا مسرعَين عبر سلسلة لا تنتهي من الشوارع المهجورة والمعتمة التي اتسعت تدريجياً حتى أصبحنا ننطلق بسرعة فوق جسر واسع مسوَّر والنهر المظلم يجري من تحتنا ببطء، وخلفنا عدد ضخم من المباني الحجرية الكئيبة المنظر التي لا يقطع الصمتَ فيها إلاّ الوقعُ القويّ المنتظم لخطوات رجل الشرطة أو أغاني وصرخات مجموعة متأخرة من المعربدين.

أخذ السحاب العالي المتفرق يتحرك ببطء عبر السماء ولمعت نجمة أو نجمتان هنا وهناك بشكل خافت بين السحاب، وقاد هولمز العربة في صمت ورأسه مائل على صدره كرجل غارق في التفكير في حين جلست بجواره ينتابني الفضول لأعرف ما قد يكون هذا التحقيق الجديد الذي يبدو أنه يُجهِد قدراته

بشدّة، وبالرغم من ذلك فقد كنت أخاف مقاطعة تيّار أفكاره.

كنا قد قطعنا عدة أميال وبدأنا نصل إلى أطراف منطقة بيوت الضواحي الفاخرة عندما هزّ كتفيه وأشعل غليونه كشخص أقنع نفسه بأنه يقوم بما فيه المصلحة. قال: لديك موهبة الصمت يا واطسون، وهذا ما يجعلك رفيقاً نادراً. إنه لشيء عظيم أن أجد من أتحدث إليه حيث إن أفكاري ليست سارّة جداً، فقد كنت أتساءل عما يجب أن أقوله لهذه السيدة الصغيرة اللطيفة عندما تقابلني الليلة عند الباب.

- أنسيتَ أني لا أعرف شيئاً عن الأمر؟

- سأتمكن من إخبارك بوقائع القضية قبل أن نصل إلى «لي». إنها قضية بسيطة للغاية، وبالرغم من ذلك فأنا -لسبب ما- لا أجد ما يساعدني على الاستمرار. توجَد خيوط كثيرة بلا شكّ، ولكنني لا أستطيع الإمساك بطرفها. والآن سأعرض عليك القضية بوضوح وبشكل مختصَر يا واطسون، فقد تتمكن من رؤية ومضة تضيء الغموض الذي يكتنف هذه القضية.

- ابدأ إذن.

قال: منذ بضع سنوات، وتحديداً في شهر أيار

(مايو) من عام ١٨٨٤، حضر إلى لي سيد محترَم اسمه نيفيل سينت كلير، وقد بدا أنه يملك الكثير من المال، فقد اشترى دارة واسعة وقام بتخطيط الحدائق بشكل رائع جداً وعاش -عموماً- في مستوى جيد، وبالتدريج كوّن صداقات من بين جيرانه، وعام ١٨٨٧ تزوّج ابنة صاحب مصنع محلي ورُزق منها بطفلين، وبالرغم من أنه لم يكن لديه مهنة إلا أنه كان مهتمّاً بعدة شركات، ولذلك فقد كان من عادته أن يذهب إلى المدينة في الصباح ثم يعود في كل ليلة بقطار الساعة الخامسة وأربع عشرة دقيقة من محطة شارع كانون. السيد سينت كلير يبلغ من العمر الآن سبعة وثلاثين عاماً، وهو رجل له عادات معتدلة، كما أنه زوج جيّد وأب حنون جداً ومحبوب من كل من يعرفه، ويمكنني أن أضيف إلى ذلك أن ديونه الكاملة في الوقت الحاضر لا تتجاوز ثمانية وثمانين جنيهاً، في حين أن لديه ٢٢٠ جنيهاً في حسابه ببنك كابيتَل آنْد كاونتيز، ولذلك فلا سبب للاعتقاد بأنه كان يعاني من مشكلات مادّية.

ذهب السيد نيفيل سينت كلير إلى المدينة يوم الإثنين الماضي في وقت أبكر من المعتاد مشيراً -قبل أن يبدأ طريقه- إلى أن عليه أن ينجز أمرين مهمّين، وقال إنه سيُحضِر معه علبة من المكعّبات لابنه الصغير حين يعود إلى المنزل. وبالمصادفة البحتة تلقّت زوجته

برقية في نفس ذلك اليوم بعد رحيله بوقت قصير جداً تفيد بأن طرداً بريدياً كانت تتوقع وصوله وله قيمة كبيرة ينتظرها في مكاتب شركة أبَرْدين للشحن، وإذا كنت تعرف مدينتك لندن جيداً فسوف تعرف أن مكتب الشركة يقع في شارع فريسنو الذي يتفرع من آخر زقاق سواندام حيث وجدتَني الليلة.

تناولَت السيدة سينت كلير غداءها ثم اتجهت إلى المدينة وقامت ببعض التسوّق قبل أن تتابع طريقها إلى مكتب الشركة وتستلم طردها، وهكذا فقد وجدت نفسها في تمام الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة تسير في زقاق سواندام وهي في طريق العودة إلى المحطة. هل فهمت ما قلتُه حتى الآن؟

- بمنتهى الوضوح.

استطرد يقول: وقد كان يوم الإثنين -لو تذكر- حاراً جداً، وكانت السيدة سينت كلير تسير ببطء وتنظر حولها أملاً في رؤية عربة أجرة لأنها لم ترتَح للحيّ الذي وجدت نفسها فيه. وبينما كانت تمشي على هذا الحال سمعت فجأة هتافاً أو صراخاً، وصُعقت حين رأت زوجها ينظر إليها من نافذة الطابق الثاني لأحد المباني ويومئ لها كما تخيّلَت. كانت النافذة مفتوحة فرأت وجهه بوضوح ووصفَته بأنه كان شديد الانفعال، وقد لوّح لها بيديه بشدة، ثم اختفى

من النافذة بطريقة فجائية حتى إنها تصورت أنه قد سُحب إلى الوراء بواسطة قوّة قهرية من خلف ظهره. وقد لفتت نظرَها الأنثوي السريعَ نقطةٌ غريبة، فبالرغم من أنه كان يرتدي معطفاً داكناً مثل الذي كان يرتديه عندما غادر المنزل متجهاً إلى المدينة إلا أنه لم يكن يرتدي ياقة ولا ربطة عنق.

كانت مقتنعة بوجود شيء مقلق بشأن زوجها، ولذلك أسرعت تنزل الدرَج، حيث لم يكن المنزل إلاّ وكر الأفيون الذي وجدتني فيه الليلة. وقد جرت عبر الغرفة الأمامية محاولةً صعود الدرَج الذي يؤدّي إلى الطابق الأول، ولكنها قابلت عند أسفل الدرَج ذلك البحّار الوغد الذي تكلمت عنه، فقام بدفعها إلى الخلف وعاونه شخص دنمركي يعمل مساعداً هناك على إخراجها إلى الشارع بالقوّة، فتملّكها من الشكوك والمخاوف ما أفقدها صوابها، فأسرعت تجري عبر الشارع وقابلت في شارع فريسنو -لحسن الحظ النادر- عدداً من الجنود ومعهم مفتّش كانوا في طريقهم جميعاً إلى عملهم، فعاد معها المفتش ورجلان، وبالرغم من المقاومة المستمرّة للمالك فقد شقّوا طريقهم إلى الغرفة التي شوهد فيها السيد سينت كلير آخر مرة.

لم يكن هناك أثر له على أية حال، وفي الحقيقة

لم يكن في الطابق كله إلاّ شخص عاجز تعِس له شكل قبيح يبدو أنه قد اتخذ من ذلك المكان منزلاً له، وقد أقسم هذا الشخص هو والبحّار على أنه لم يكن في



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

الغرفة الأمامية أحد آخر طوال ما بعد الظهر، ولأنهما أنكرا بإصرار شديد وجودَ أي شخص آخر فقد تسلل الشك إلى عقل المفتش حتى كاد يصدّق أن السيدة سينت كلير كانت واهمة، فصرخت السيدة وقفزت إلى صندوق صغير على الطاولة ثم مزقت الغطاء عنه فسقطت مجموعة من مكعّبات الأطفال، وهي اللعبة التي كان زوجها قد وعد بإحضارها إلى المنزل.

هذا الاكتشاف، بالإضافة إلى الارتباك الذي أظهره الرجل العاجز، جعل المفتش يدرك أن الأمر خطير تماماً، فتمّ فحص المسكن بعناية، وأشارت النتائج إلى وجود جريمة فظيعة.

كانت الغرفة الأمامية مفروشة ببساطة كغرفة جلوس وتقود إلى غرفة نوم صغيرة تطل على الجزء الخلفي لأحد أرصفة الميناء، وكان هناك ممر ضيق طويل بين رصيف المرفأ ونافذة غرفة النوم، وهو عادة ما يكون جافاً عند انخفاض المدّ، ولكن عندما يرتفع المدّ يغطيه الماء تماماً بأربعة أقدام ونصف على الأقل. كانت نافذة غرفة النوم عريضة وتُفتَح من الأسفل، وقد تمّ العثور على آثار دماء عند فحص إطار النافذة، بالإضافة إلى وجود عدة قطرات من الدماء متناثرة على أرضية غرفة النوم الخشبية، وبالإضافة إلى ذلك كانت كل ملابس السيد نيفيل سينت كلير مخبّأة خلف ستارة

في الغرفة الأمامية، وفيما عدا معطفه وحذاءه الطويل وجواربه وقبّعته وساعته كانت كل حوائجه هناك.

لم يكن هناك أي أثر لاستخدام العنف على أيّ من هذه الملابس، كما لم يكن هناك آثار أخرى للسيد سينت كلير، ولا بدّ أنه قد خرج من النافذة حيث لم يتمّ اكتشاف أي مخرج آخر، وكانت لطخات الدم المشؤومة على إطار النافذة تشير إلى أنه لم يكن باستطاعته إنقاذ نفسه سباحةً إذ كان المدّ في أعلى حالاته وقت وقوع المأساة.

أما بالنسبة إلى الوغدين اللذَين بدا على الفور أنهما متورطان في الأمر فالبحّار معروف بسوابقه الشريرة، ولكنه كان -حسب رواية السيدة سينت كلير- عند أسفل الدرَج قبل ثوانٍ قليلة من ظهور زوجها في النافذة، ولذلك فلا يمكن أن يكون أكثر من مجرّد شريك ثانوي في الجريمة، وقد دافع عن نفسه بادّعاء الجهل الكامل وأكّد أنه لا يعرف شيئاً عن أفعال السيد هيو بون المستأجر عنده، وقال إنه لا يستطيع بأي حال أن يعلّل وجود ملابس السيد المختفي.

تحدثنا بما فيه الكفاية عن البحّار، فدعنا الآن نتحدث عن العاجز الشرير الذي يعيش في الطابق الثاني من وكر الأفيون، والذي هو بالتأكيد آخر شخص وقعت عيناه على نيفيل سينت كلير.

اسمه هيو بون، ووجهه القبيح مألوف لدى كل من يذهب كثيراً إلى المدينة، فهو متسوّل محترف، وإن كان يدّعي القيام ببيع الثقاب حتى يتجنب أنظمة الشرطة. فعلى بُعد مسافة قصيرة أسفل شارع ثريدنيدل وعلى الجهة اليسرى توجَد زاوية صغيرة في الحائط كما قد تكون لاحظت، وهي المكان الذي يقضي

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

فيه هذا المخلوق أيامَه جالساً القرفصاء وبضاعتُه من أعواد الثقاب في حِجْره، ولأن منظره مثير للشفقة فإن الصدقة تنهمر في وابل صغير على القبّعة الجلدية المبقّعة على الرصيف بجانبه.

لقد راقبت هذا الرجل أكثر من مرة قبل أن أفكر في التعرّف على مهنته، وتعجبت من المكسب الذي تمكن من الحصول عليه في وقت قصير! إن شكله لافت جداً للنظر حتى إن أيّ شخص لا يستطيع أن يمر بجواره دون أن يلاحظ وجوده؛ فله شعر أحمر كثيف ووجه شاحب شوّهته ندبة رهيبة أدّى انكماشها إلى رفع الحافّة الخارجية لشفته العليا، كما أن له ذقناً يشبه ذقن كلب الصيد وعينين داكنتين ثاقبتين تشكلان تبايناً غريباً مع لون شعره، وكان كل هذا يميّزه عن حشود المتسولين العاديين، بالإضافة أيضاً إلى ذكائه، فهو جاهز دائماً للردّ على أي مزحة قد يلقي بها أحد المارّة عليه. هذا هو الرجل الذي نعلم الآن أنه كان يستأجر مسكناً في وكر الأفيون وأنه آخر من رأى السيد الذي نبحث عنه.

قلت: ولكنه عاجز! فما الذي كان يستطيع أن يفعله منفرداً ضدّ رجل في مقتبَل العمر؟

- إنه عاجز بمعنى أنه يعرج في مشيته، أمّا من كل النواحي الأخرى فهو يبدو رجلاً قوياً ذا بنية

جيدة، وأنت تعلم يا واطسون بحكم خبرتك الطبية أن الضَّعف في أحد الأطراف غالباً ما يعوَّض بقوة استثنائية في بقية الأطراف.

- واصل روايتك من فضلك.

قال: غابت السيدة سينت كلير عن وعيها عندما رأت الدم على النافذة، ثم نُقلت إلى المنزل في عربة أجرة تحت حماية الشرطة حيث لم يكن وجودها ليساعدهم في تحقيقهم، وقد قام المفتّش بارتون الذي كان يتولّى التحقيق في القضية بفحص دقيق للمبنى، ولكن دون أن يجد أي شيء قد يلقي بالضوء على المسألة. خطأ واحد تمّ ارتكابه بعدم القبض على بون في الحال، حيث سُمح له ببضع دقائق تمكّن خلالها من الاتصال بصديقه البحّار، ولكن تمّ تصحيح هذا الخطأ سريعاً فقبضوا عليه وفتّشوه دون أن يجدوا شيئاً يمكن أن يجرّمه. وبالرغم من أنهم وجدوا بعضاً من بقع الدم على كمّ قميصه الأيمن إلا أنه أشار إلى بنصره الذي كان مجروحاً بالقرب من الظفر وأوضح أن هذا هو سبب وجود الدم على كم قميصه، كما أضاف أنه كان عند النافذة منذ وقت قصير وأن البقع التي لوحظ وجودها هناك جاءت من نفس المصدر ولا شكّ. وقد أنكر بعنف رؤيته للسيد نيفيل سينت كلير وأقسم أن وجود الملابس في منزله يمثّل لغزاً بالنسبة إليه كما هو

لغز بالنسبة إلى الشرطة، أما بالنسبة إلى إصرار السيدة سينت كلير على أنها رأت زوجها يطلّ من النافذة فقد أعلن أنها قد تكون مجنونة أو أنها كانت تحلم، وقد تمّ نقله إلى قسم الشرطة وهو يصرخ مبدياً اعتراضه، في حين بقي المفتش في المبنى أملاً في أن يكشف انحسار المدّ عن بعض الأدلّة الجديدة.

وهذا ما حدث، حيث إنهم بالكاد وجدوا على الضفّة الطينية ما كانوا يخشون أن يجدوه، فقد وجدوا معطف السيد سينت كلير (وليس السيد سينت كلير نفسه) مكشوفاً حين تراجع المدّ. وماذا وجدوا في الجيوب في اعتقادك؟

- لا يمكنني التصوّر.

- نعم، لا أظنّ أن بإمكانك التخمين؛ فقد كان كل جيب محشوّاً ببنسات وأنصاف البنسات، ٤٢١ من البنسات و٢٧٠ من أنصاف البنسات، ولذلك فلا عجب في أن المدّ لم يجرفه. أما الجسم البشري فمسألة مختلفة، فهناك دوامة قوية بين رصيف المرفأ والمنزل، وهكذا فقد بدا من المرجَّح أن يكون المعطف الثقيل قد بقي في حين انجرف الجسم العاري بعيداً إلى داخل النهر.

- ولكنني فهمت أن كل الملابس الأخرى قد

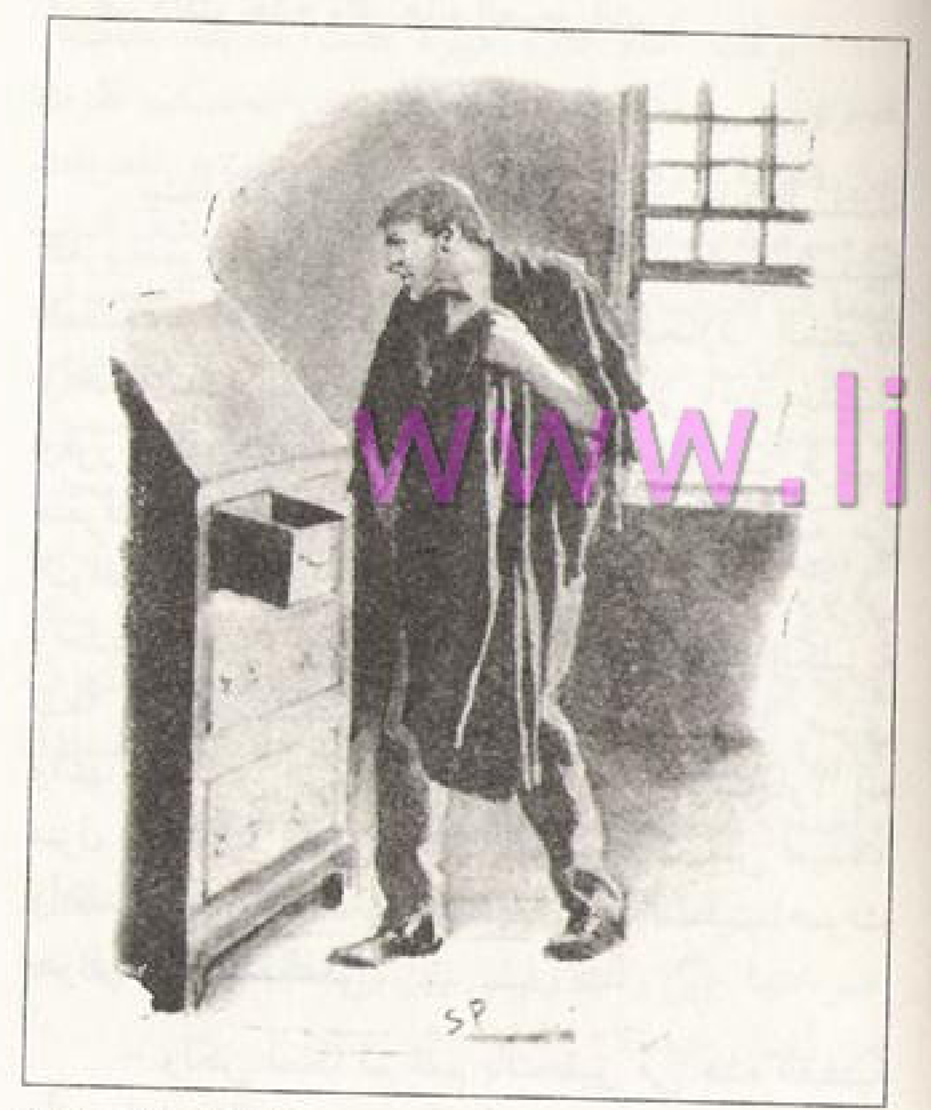
وُجدت في الغرفة، فهل كانت الجثة ترتدي المعطف فقط؟

- لا يا صديقي، ولكن الوقائع قد تتقابل بشكل معقول ظاهرياً. فلنفرض أن ذلك الرجل بون قد دفع السيد نيفيل سينت كلير عبر النافذة ولم يرَه أحد، فما الذي يمكن أن يفعله حينذاك؟ لا بدّ بالطبع أن يفكر في الحال في التخلّص من الملابس التي تدل على الواقعة، فيقوم بالإمساك بالمعطف ليرميه، ولكن بينما يقوم بذلك يخطر على باله أن المعطف سيطفو ولن يغوص، ولم يكن أمامه إلاّ وقت قصير حيث سمع الشجار الذي حدث في الطابق السفلي حين حاولت الزوجة الصعود عنوة، وقد يكون قد عرف من شريكه البحّار أن الشرطة قادمة بسرعة عبر الشارع، ولم يكن أمامه وقت ليضيعه فأسرع إلى مكان كنزه السرّي حيث يحتفظ بثمار تسوّله وأخذ يحشو الجيوب بكل ما يصل إلى يده من عملات حتى يضمن أن يغوص المعطف، ثم ألقاه من النافذة، وكان سيفعل نفس الشيء مع الملابس الأخرى، ولكنه سمع تسارُع الخطوات بالأسفل ولم يكن عنده من الوقت إلا ما يكفي لإغلاق النافذة قبل ظهور الشرطة.

- يبدو الأمر معقولاً بالتأكيد.

- حسناً، سننظر إليها كفرضية ممكنة حتى نجد

ما هو أفضل منها. لقد قُبض على بون وتمّ أخذه إلى قسم الشرطة كما أخبرتك، ولكن لم يظهر أي شيء ضدّه، فالمعروف عنه منذ سنوات أنه متسول محترف، ولكن يبدو أن حياته كانت هادئة جداً وبريئة. هذا هو الموقف حالياً، والأسئلة التي يجب حلّها هي: ماذا



رسم سدني باجيت ١٨٩١   Sydney Paget 1891

كان نيفيل سينت كلير يفعل في وكر الأفيون؟ وماذا حدث له عندما وصل إلى هناك؟ وأين هو الآن؟ وما علاقة هيو بون باختفائه؟ وكل هذه الأسئلة بعيدة كل البعد عن الحل. أعترف أنني لا أذكر أي قضية ضمن خبرتي تبدو بهذه البساطة عند النظرة الأولى لها، ورغم ذلك تقدّم مثل هذه الصعوبات.

❋ ❋ ❋

بينما كان شيرلوك هولمز يسرد هذه السلسلة الغريبة من الأحداث كنا ننطلق عبر ضواحي المدينة العظيمة، حتى ابتعدنا عن آخر المنازل المتفرقة وأخذنا نمشي بالعربة وسياج الريف على أحد جانبَينا. وفور انتهاء هولمز من الحديث كنا ننطلق عبر قريتين متفرقتين حيث كانت بعض الأنوار ما تزال تلمع من النوافذ. قال رفيقي: نحن على أطراف لي، لقد سرنا في رحلتنا القصيرة على حدود ثلاث مقاطعات إنكليزية بدءاً من مدلسكس وعبوراً بإحدى زوايا صرّي وانتهاء بكِنْت. أترى ذلك الضوء بين الأشجار؟ إنه منزل سيدارز، وبجوار ذلك المصباح تجلس سيدة، وأغلب ظنّي أن أذنها المتلهّفة قد التقطت صوت حوافر حصاننا بالفعل.

– ولكن لماذا لم تقُم بالتحقيق في هذه القضية وأنت في منزلك بشارع بيكر؟

– بسبب الكثير من التحريات التي يجب القيام بها. وقد تكرمت السيدة سينت كلير بوضع غرفتين تحت تصرّفي، وتأكد أنها سترحّب أيضاً بصديقي وزميلي، وإن كنت أكره أن أقابلها يا واطسون وليست عندي أية أخبار عن زوجها. حسناً، ها قد وصلنا.

توقّفنا أمام دارة كبيرة ذات حديقة خاصة، فجرى صبي الإسطبل وأمسك برأس الحصان. قفزت من العربة وتبعت هولمز على ممرّ متعرّج للعربات مرصوف بالحصى يقود إلى المنزل، وفُتح الباب فيما كنا نقترب ووقفت امرأة شقراء صغيرة الحجم في فتحة الباب مرتدية ثوباً من القماش الحريري المزيَّن بالشيفون الورديّ المنفوش عند العنق والمعصمين. وقفت يحيط بها فيض من الضوء الساطع ويحدّد قوامها فيما كانت تضع إحدى يديها على الباب والأخرى نصف مرفوعة في تحفّز. كان جسدها يميل قليلاً إلى الأمام ورأسها ووجهها ممدودين وقد ظهرت اللهفة في عينيها وشفتيها المفتوحتين قليلاً في تساؤل واضح، ثم صاحت قائلة: حسناً، ما الأخبار؟

ثم رأت أننا شخصان فصرخت بأمل، ثم خفتت صرختها حين رأت رفيقي يهزّ رأسه وكتفيه فقالت: ما من أخبار جيدة؟

– نعم.

- ولا سيئة؟

- نعم.

- الحمد لله على ذلك على أية حال. ادخلا، لا بدّ أنك مرهق؛ لقد كان يومك طويلاً.

- هذا صديقي الدكتور واطسون، وقد أفادني كثيراً في العديد من القضايا، وقد كانت المصادفة السعيدة سبباً في تمكني من إحضاره إلى هنا وإشراكه في هذا التحقيق.

قالت وهي ترحّب بي بحرارة: أنا سعيدة برؤيتك ومتأكدة أنك ستسامحنا لأي نقص تجده في الترتيبات عندما تضع في اعتبارك النكبة التي حلت بنا فجأة.

قلت: سيدتي العزيزة، أنا جندي قديم محنّك، وحتى لو لم أكن كذلك فأنا أستطيع أن أرى جيداً أنه لا حاجة إلى أي اعتذار، وسأكون سعيداً حقاً إذا تمكنت من مساعدتك أو مساعدة صديقي هولمز.

قالت السيدة ونحن ندخل إلى غرفة الطعام ذات الإضاءة الجيدة حيث وُضع على الطاولة عشاء بارد: والآن يا سيد هولمز أحب أن أسألك سؤالاً بسيطاً أو اثنين، وأرجو أن تجيب إجابة واضحة.

- بالتأكيد يا سيدتي.

- لا تقلق على مشاعري فأنا لست هشّة الأعصاب. أنا أريد ببساطة أن أسمع رأيك الحقيقي، والحقيقي فقط.

- في أي مسألة؟

- أتعتقد في أعماق أعماقك أن نيفيل على قيد الحياة؟

بدا شيرلوك هولمز مُحرَجاً من السؤال، فكررت السيدة السؤال وهي تنظر إليه باهتمام: بصراحة.

- بصراحة، إذن يا سيدتي... لا أظنّ ذلك.

- أتظنّ أنه قد مات؟

- نعم.

- قُتل؟

- لا أقول ذلك، ربما.

- وفي أي يوم لقي حتفه؟

- الإثنين.

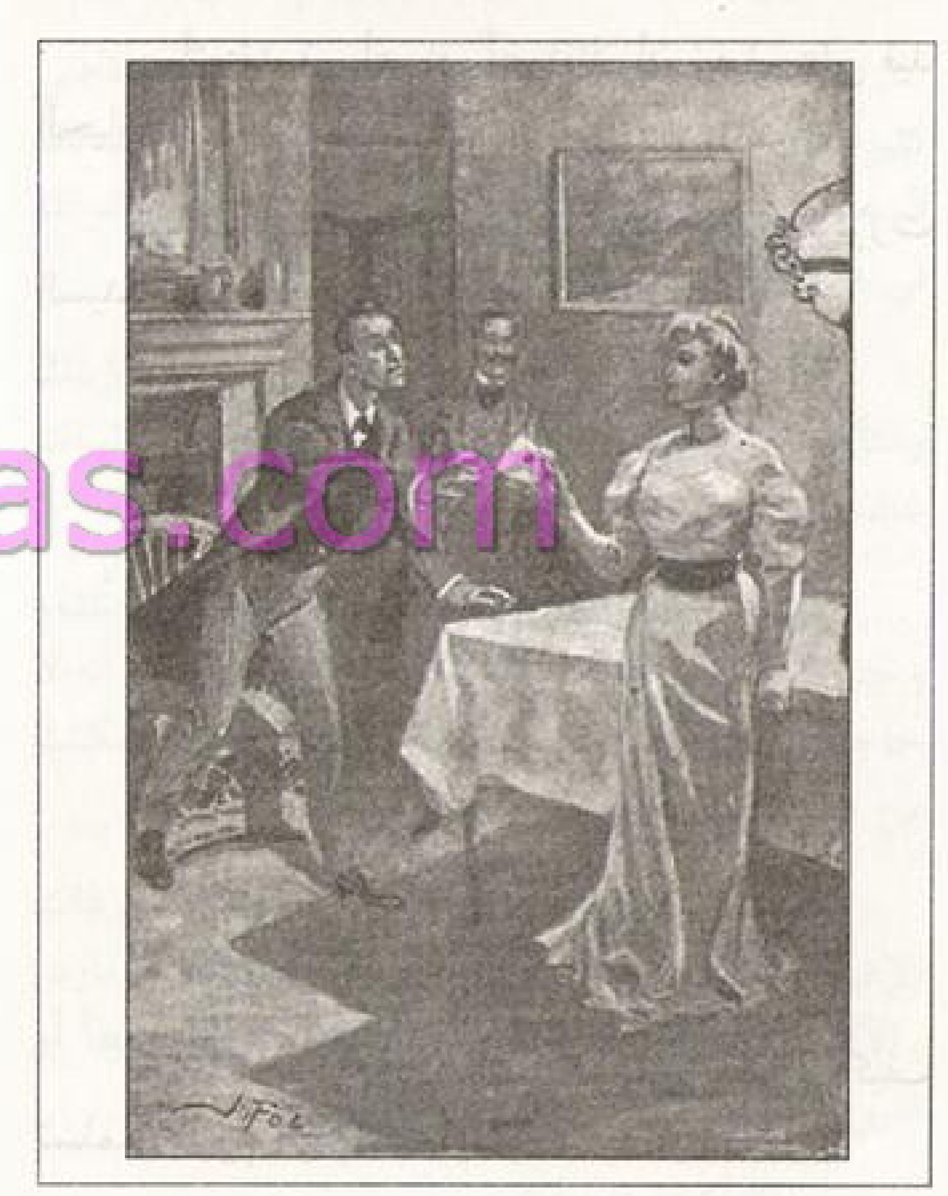
- لعلك تتكرم إذن يا سيد هولمز وتفسّر لي كيف تسلمت اليوم خطاباً منه؟

هبّ هولمز عن كرسيه واقفاً وكأن الكهرباء قد

صعقته وزمجر قائلاً: ماذا؟!

وقفت تبتسم وهي ترفع في الهواء قطعة من الورق فقال: هل يمكن أن أراه؟

- بالتأكيد.



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

انتزع هولمز الورقة من يدها بلهفة وبسطها على الطاولة، ثم سحب المصباح وفحصها باهتمام شديد، كما تركت أنا مقعدي وأخذت أنظر إليها من فوق كتفه. كان الظرف خشناً جداً ومختوماً بختم بريد غرافسند بتاريخ اليوم نفسه، أو بالأحرى تاريخ اليوم الذي سبقه حيث كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

غمغم هولمز قائلاً: الخط رديء، بالتأكيد ليس هذا خط زوجك يا سيدتي.

- نعم، لكن الخطاب الموجود في الداخل مكتوب بخطه.

- ألاحظ أيضاً أن الشخص الذي كتب العنوان على المظروف كان مضطراً إلى أن يذهب ويستفسر عنه.

- كيف استطعت معرفة ذلك؟

- كما ترين فإن الاسم مكتوب بخط أسود واضح جفّ من تلقاء نفسه، أما الباقي فلونه رمادي، مما يدل على أنه قد تم استعمال ورق نشّاف، ولو كُتب كله مرة واحدة ثم نُشِّف لما كانت هناك أي كتابة باللون الأسود الزاهي. هذا الرجل كتب الاسم ثم توقف لفترة قبل أن يكتب العنوان، مما يدل فقط على أنه لم يكن يعرفه. هذا الأمر تافه بالطبع. والآن دعينا

نظر إلى الخطاب.

وبعد أن نظر في الورقة قال: لقد كان المظروف يحتوي على شيء؟

- نعم، كان فيه خاتم، خاتم توقيعه.

- وهل أنت متأكدة أن هذا هو خط زوجك؟

- واحد من خطَّيه.

- كيف ذلك؟

- هذا خطه حين يكتب بسرعة، وهو مختلف تماماً عن خطه المعتاد ولكنني أعرفه جيداً.

كان نص الخطاب كما يلي: «عزيزتي، لا تخافي، سيكون كل شيء على ما يرام. يوجَد خطأ كبير ويلزم بعض الوقت لتصحيحه. انتظري بصبر. نيفيل».

قال هولمز: هذه الكلمات مكتوبة بقلم رصاص على ورقة من الأوراق البيضاء التي تكون في أول الكتب أو آخرها، حجمها خمس بوصات في ثمان، ليس بها علامة مائية، وقد أرسل الخطابَ اليوم من غرافسند رجلٌ له إبهام متّسخ، وقد لُصِق غطاء المظروف -ما لم أكن على خطأ كبير- بواسطة شخص كان يمضغ التبغ. أليس لديك أي شكّ يا سيدتي في أن

هذا خط زوجك؟

- على الإطلاق، نيفيل هو مَن كتب هذه الكلمات.

- وقد أُرسلَت اليوم بالبريد من غرافسند. حسناً يا سيدة سينت كلير، لقد انقشعت الغيوم قليلاً، ولكنني لا أستطيع أن أجازف بقولي إن الخطر قد زال تماماً.

- ولكن لا بد أنه حيّ يا سيد هولمز.

- إلا إذا كان هذا الخطاب مزوَّراً بمهارة حتى يبعدونا عن الطريق الصحيح، أمّا الخاتم فلا يدل على شيء؛ ربما أُخذ منه.

- لا، لا، هذا خطه، هذا خطه بالتأكيد.

- جيد جداً، قد يكون كُتب على أية حال يوم الإثنين ولم يُرسَل بالبريد إلا اليوم.

- محتمَل.

- إذا كان الأمر كذلك فالكثير قد يحدث من يوم الإثنين حتى اليوم.

- آه! يجب أن لا تخيفني يا سيد هولمز. أنا أعرف أنه بخير، فبيننا من المشاعر ما يجعلني أحسّ لو

حدث له مكروه، حتى إنه عندما جرح نفسه في غرفة النوم في آخر يوم رأيته فيه، وبالرغم من أنني كنت في غرفة الطعام إلا أنني أسرعت إلى الطابق العلوي وأنا متأكدة تماماً أن شيئاً قد حدث. أتعتقد أنني قد أحسّ بمثل هذا الأمر البسيط ولا أشعر بموته؟

- خبرتي الواسعة جعلتني أعرف أن إحساس المرأة قد يكون أكبر قيمة من استنتاج محلّل منطقي، وبهذا الخطاب أنت تملكين دليلاً قوياً جداً يؤيّد رأيك، ولكن إذا كان زوجك حياً وقادراً على كتابة الخطابات فما الذي يبقيه بعيداً عنك؟

- لا أستطيع تصور السبب؛ إنه أمر لا يقبله العقل!

- ألم يقُل لك أي تعليق قبل أن يتركك يوم الإثنين؟

- لم يقُل أي شيء.

- وهل فوجئت حين رأيته في زقاق سواندام؟

- إلى أقصى حد.

- هل كانت النافذة مفتوحة؟

- نعم.

- ألم يكن بإمكانه أن يناديك إذن؟

- ربما.

- ولكنه أطلق فقط صرخة مترددة كما فهمت؟

- أجل.

- أكان يطلب المساعدة في اعتقادك؟

- نعم، فقد لوّح بيديه.

- ولكن ربما كانت صيحة دهشة. أليس من



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

الممكن أن يدفعه ذهوله لرؤيتك غير المتوقَّعة لأن يحرّك يديه إلى أعلى؟

- ربما.

- وقد يكون خُيِّل إليك أن أحداً قد سحبه إلى الخلف؟

- لقد اختفى بشكل مفاجئ جداً!

- من الممكن أن يكون قد وثب إلى الخلف. هل رأيت أي شخص آخر في الغرفة؟

- لا، ولكن ذلك الرجل الرهيب اعترف أنه كان هناك، كما أن البحّار كان أسفل الدرج.

- تماماً، وهل كان زوجك -حسبما رأيتِ- يرتدي ملابسه الاعتيادية؟

- ولكن دون ياقة أو رابطة عنق، فقد رأيت عنقه العاري بوضوح.

- هل سبق أن تحدّث إليك عن زقاق سواندام؟

- لا.

- وهل سبق أن ظهرت عليه علامات تعاطي الأفيون؟

- إطلاقاً.

- شكراً لك يا سيدة سينت كلير، لقد كانت هذه هي النقاط الأساسية التي أردت أن أستوضحها تماماً. سنتناول الآن طعام العشاء ثم نأوي إلى الفراش لأن من الممكن أن يكون أمامنا يوم عمل حافل غداً.

* * *

وُضعت تحت تصرّفنا غرفة فسيحة مريحة ذات سريرين، فدخلت إلى الفراش بسرعة حيث كنت مرهَقاً بعد مغامرتي تلك الليلة، أمّا شيرلوك هولمز فهو رجل إذا شغلت عقلَه مشكلةٌ غير محلولة فقد يستطيع الاستمرار بلا راحة لأيام، وربما لأسبوع، وهو يفكّر في الأمر ويعيد ترتيب الوقائع وينظر إليها من كل زاوية حتى يتمكن من تفسيرها أو يُقنع نفسه بأن المعلومات الموجودة عنده غير كافية.

واتضح لي سريعاً أنه يُعدّ لجلسة تستمرّ الليل كله، فقد خلع معطفه وصدريّته وارتدى رداء أزرق واسعاً للنوم، ثم راح يتجوّل في الغرفة فجمع الوسائد من سريره ومن الأريكة والمقعد الكبير، ثم قام باستخدامها لإنشاء نوع من مجالس الأرائك الشرقية وجلس عليها عاقداً ساقيه تحته.

رأيته في ضوء المصباح الخافت جالساً هناك

بصمت وبلا حركة وبين شفتيه غليون قديم من جذر الورد وعيناه مثبّتتان بلا تعبير على زاوية السقف، وكان الدخان الأزرق يتصاعد في دوائر من فمه والضوء يلمع على ملامح وجهه القوية التي تشبه ملامح النسر. كان يجلس بهذا الشكل عندما استسلمت للنوم... وهكذا وجدته حين أيقظتني صرخة مفاجئة لأجد شمس الصيف تضيء الغرفة وأجد أن الغليون لا يزال بين شفتيه!

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

سأل قائلاً: هل استيقظت يا واطسون؟

- نعم.

- هل أنت مستعد لرحلة صباحية؟

- بالتأكيد.

- ارتدِ ملابسك إذن. لم يستيقظ أحدٌ بعد، ولكنني أعرف أين ينام صبي الإسطبل وسريعاً ما سيُخرِج العربة.

كان هولمز يضحك لنفسه بصوت خافت فيما هو يتكلم، كما كانت عيناه تلمعان وبدا كشخص مختلف عن المفكّر المكتئب الذي كان في الليلة الماضية.

نظرت إلى ساعتي عندما كنت أرتدي ملابسي فوجدت أنه من غير العجيب أن لا يكون أحد قد استيقظ بعد، فقد كانت الساعة الرابعة وخمساً وعشرين دقيقة. لم أكَد أنتهي حتى عاد هولمز ليخبرني أن الصبي يُعدّ الحصان.

قال وهو يرتدي حذاءه: أريد اختبار نظرية بسيطة، وأعتقد -يا واطسون- أنك تقف الآن مع واحد من أكثر الأشخاص حماقة في أوروبا، فأنا أستحقّ ركلة شديدة القوة، ولكنني أحسب أن مفتاح حل هذه القضية قد أصبح معي الآن.

سألته مبتسماً: وأين هو؟

أجاب: في الحمام.

ثم أكمل حين رأى في وجهي عدمَ التصديق: نعم، أنا لا أمزح، فقد كنت هناك منذ لحظة وأخذته ووضعته في هذه الحقيبة. هيا يا بني، سنرى ما إذا كان سيناسب القفل.

❋ ❋ ❋

نزلنا بأقصى هدوء ممكن وخرجنا إلى شمس الصباح المشرقة لنجد العربة والحصان يقفان علي الطريق وصبي الإسطبل يقف عند مقدّمة العربة ولما يرتدِ ملابسَه بالكامل، فقفز كل منا إلى داخلها وانطلقنا مسرعين على طريق لندن.

كانت هناك عربات يدوية ريفية قليلة تتحرك على الطريق وهي تحمل الخضروات، ولكن القرى القائمة على جانبَي الطريق كانت صامتة بلا حياة كما لو كانت غارقة في بعض الأحلام!

قال هولمز وهو يحثّ الحصان ليسرع: إنها قضية فريدة من عدّة نواح، وأعترف أنني كنت أعمى، ولكن من الأفضل أن نصل إلى الحقيقة متأخرين على أن لا نصل على الإطلاق.

حين وصلنا إلى المدينة كان الناس الذين يستيقظون مبكراً جداً قد أخذوا يطلّون من نوافذهم وما زال يبدو عليهم النعاس ونحن نمرّ عبر شوارع صوري. مررنا أسفل طريق واترلو بريدج وعبرنا فوق النهر ثم انطلقنا في شارع ويلنغتون، وأخيراً انعطفنا بحدّة إلى اليمين لنجد أنفسنا في شارع بو. كان شيرلوك هولمز معروفاً جيداً لقوة الشرطة، ولذلك فقد حيّاه الشرطيان على الباب وقام أحدهما بالإمساك بالحصان فيما قادنا الآخر إلى داخل قسم الشرطة حيث سأل هولمز قائلاً: مَن هو الضابط المناوب الآن؟

- المفتش برادستريت يا سيدي.

جاء رجل قوي طويل يرتدي قبّعة عالية وسترة مزيّنة بعُرى من الخيط المجدول، جاء متقدماً عبر الممرّ ذي الأرضية الحجرية، فقال هولمز: آه، برادستريت، كيف حالك؟ أريد أن أكلمك على انفراد.

- بالتأكيد يا سيد هولمز، ادخل هنا إلى غرفتي لو سمحت.

كانت غرفة صغيرة تشبه المكتب، وكان على الطاولة سجلّ ضخم وقد عُلِّق جهاز هاتف على الجدار.

جلس المفتش على مكتبه وقال: بماذا يمكنني أن أخدمك يا سيد هولمز؟

- لقد جئت إليك بخصوص ذلك المتسول، بون، هذا الذي اتُّهِم بأنه مسؤول عن اختفاء السيد نيفيل سينت كلير الذي يسكن في بلدة لي.

- نعم، لقد قبضوا عليه ومدّدوا حبسه للقيام بتحقيقات إضافية.

- هذا ما سمعته، أما يزال هنا؟

- في الزنزانة.

- هل هو هادئ؟

- إنه لا يسبب أية مشكلة، ولكنه وغد قذر.

- قذر؟

- نعم، لقد بذلنا جهدنا حتى غسل يديه، ولكن وجهه أسود كوجوه الغجر. حسناً، عندما تنتهي هذه القضية سيكون عليه الاستحمام في السجن بانتظام، وأظن أنك ستتفق معي إن رأيته في أنه يحتاج إلى ذلك.

- كم أودّ أن أراه!

- حقاً؟ إنه أمر سهل. تعالَ من هنا، يمكنك أن تترك حقيبتك.

- لا، بل أظن أنني سآخذها.

- حسناً، تفضلا من هذا الطريق لو سمحتما.

قادنا عبر ممرّ، ثم فتح باباً مزوّداً بالقضبان لننزل إلى درَج لولبيّ ونصل إلى رواق مطليّ باللون الأبيض وعلى كل جانب من جانبَيه صف من الأبواب. قال المفتش: زنزانته هي الثالثة إلى اليمين؛ ها هي.

ثم دفع بعنف إلى الخلف لوحاً موجوداً بالجزء العلوي من الباب ونظر إلى الداخل وقال: إنه نائم، تستطيع النظر إليه جيداً.

نظرنا عبر الحاجز ذي القضبان فوجدنا السجين يرقد ووجهه باتجاهنا وهو غارق في نوم عميق ويتنفس بعمق وببطء. كان رجلاً متوسط الحجم يرتدي ملابس خشنة بما يتناسب مع مهنته ويظهر قميصه الملوَّن من شقّ في معطفه البالي، كما كان في منتهى القذارة كما قال المفتش، وإن لم تكن القذارة المتراكمة على وجهه كافية لإخفاء قبحه البغيض حيث امتدّت ندبة عريضة من أثر جرح قديم على طول وجهه من العين إلى الذقن، وتسبب تقلّصها في رفع أحد جوانب شفته

العليا فظهرت ثلاثة من أسنانه في تكشيرة دائمة، كما كان الشعر في رأسه وحاجبَيه كثيفاً قصيراً وله لون أحمر فاقع.

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

قال المفتش: إنه منظر يستحقّ المشاهدة، أليس كذلك؟

أضاف هولمز قائلاً: إنه يحتاج إلى الاغتسال بالتأكيد، وأنا أعتقد أنه قد يقوم بذلك، وقد أعطيت لنفسي الحقّ في إحضار الأدوات معي.

فتح هولمز حقيبته وهو يتكلم، وأخرج -لدهشتي- قطعة إسفنج استحمام كبيرة جداً! فقهقه المفتش قائلاً: أنت رجل مضحك يا هولمز!

- والآن، هل تتكرم وتفتح هذا الباب بهدوء شديد، وسنجعله سريعاً في مظهر أكثر احتراماً.

قال المفتش: حسناً، لا أرى مانعاً في ذلك، فهو لا يبدو بشكل يليق بسجن شارع بو، أليس كذلك؟

أدخل المفتش مفتاحه في القفل، ودخلنا جميعاً إلى الزنزانة بهدوء. تقلّب النائم قليلاً ثم عاد ليغرق مرة أخرى في سبات عميق، فمال هولمز ناحية دورق المياه وبلّل قطعة الإسفنج ثم حكّ بها وجه السجين مرتين وهو يقول: اسمحا لي بأن أقدّم إليكما السيد نيفيل سينت كلير القاطن في لي بمقاطعة كِنت!

لم أرَ في حياتي مثل ذلك المنظر! لقد انسلخ وجه الرجل تحت قطعة الإسفنج مثلما ينسلخ اللحاء

عن جذع الشجرة، واختفى اللون البني الخشن، كما اختفى أيضاً أثر الجرح الذي كان قد ترك ندوباً على طول وجهه والشفة الملتوية التي أعطت وجهه ذلك الشكل المثير للاشمئزاز، وانزاح شعره الأحمر المتشابك بعد أن جذبه هولمز!

وهكذا فقد بدا الرجل -الذي بدأ يجلس على سريره وهو يدعك عينيه وينظر حوله في ذهول ناعس- شاحباً حزين الوجه ذا مظهر مهذّب وشعر أسود بالإضافة إلى بشرة ناعمة! وفجأة أدرك افتضاح أمره فرمى بنفسه على السرير واضعاً وجهه على الوسادة.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

صاح المفتش قائلاً: يا إلهي؛ إنه الرجل المفقود بالفعل! أنا أعرفه من الصورة الضوئية.

استدار السجين في حالة من التهور لرجل ترك مصيره في يد القدر وقال: وإن يكن، أرجو أن تخبروني بأي تهمة تتّهمونني؟

قال المفتش بابتسامة عريضة: بالتخلص من السيد نيفيل سينت كلير... ولكن لا يمكن أن تُتَهَم بذلك إلا لو حوّلوها إلى قضية محاولة انتحار. حسناً، لقد أمضيتُ سبعة وعشرين عاماً في العمل بالشرطة، وهذه هي أغرب قضية صادفتها.

- ما دمت أنا السيد نيفيل سينت كلير فمن الواضح إذن أنه لا توجَد جريمة، ولذلك فاحتجازي غير قانوني.

قال هولمز: لا توجَد جريمة، ولكن يوجَد خطأ هائل قد ارتُكب، فقد كان من الأفضل أن تأتمن زوجتك على سرّك.

أنَّ السجين أنيناً كئيباً وقال: لم تكن الزوجة هي المقصودة بل الأطفال. فليساعدني الله، لن أحتمل أن يشعروا بالخجل من أبيهم. يا إلهي، يا لها من فضيحة! ماذا أفعل؟

جلس شيرلوك هولمز بجانبه على المضجع وربّت على كتفه بلطف قائلاً: لو تُرك الأمر للقضاء فلن يمكنك بالتأكيد تجنّب انتشار الخبر، لكنك لو أقنعت رجال الشرطة بعدم وجود قضية ضدّك فلا أجد سبباً لأن تجد تفصيلات القضية طريقها إلى الصحف، وأنا متأكد من أن المفتّش برادستريت سوف يسجّل كل ما قد تقوله لنا ثم يقدّمه إلى السلطات المختصة، وعندها لن تصل القضية إلى المحكمة على الإطلاق.

صاح السجين بحرارة: باركك الله، فقد كنت سأتحمل السجن، نعم، وحتى الإعدام في مقابل أن لا أترك سرّي الشائن وصمةً في مستقبل أطفالي.

ثم تنهّد بارتياح واستطرد قائلاً: أنتم ستكونون أول من يسمع قصتي. لقد كان أبي أستاذاً في تشِسْترفيلد حيث تلقّيت تعليماً ممتازاً، وقد سافرت في شبابي وعملت ممثّلاً على المسرح، وأخيراً أصبحت مراسلاً في إحدى الصحف المسائية في لندن، وفي أحد الأيام أراد رئيس التحرير سلسلة من المقالات عن التسوّل في العاصمة فتطوعت بتقديمها، وكانت هذه هي نقطة البداية لمغامراتي، فلم أكن أستطيع الحصول على الوقائع التي ستستند إليها مقالاتي إلا عن طريق تجرِبتي للتسول الفعلي.

كنت قد تعلمت كل أسرار التنكر عندما كنت ممثّلاً، وكنت مشهوراً بهذه المهارة فقمت باستغلالها، حيث صبغت وجهي وصنعت ندبة كبيرة لأجعل نفسي مثيراً للشفقة قدر الإمكان، كما قمت بتثبيت أحد جوانب شفتي بشكل ملتوٍ بمساعدة شريط لاصق بلون الجلد، وارتديت ملابس مناسبة ووضعت شعراً أحمر مستعاراً، وبعد ذلك أخذت مكاني في القسم التجاري من المدينة لأبيع الثقاب ظاهرياً، ولكنني في الحقيقة كنت أتسوّل. اجتهدت في العمل لمدّة سبع ساعات، وحين عدت إلى المنزل في المساء وجدت -لدهشتي- أنني قد كسبت مبلغاً يزيد على أربعة جنيهات!

كتبتُ مقالاتي عن التسول، ولم أفكر في الأمر إلا قليلاً حتى ضمنت صديقاً لي في فاتورة شراء وصدر ضدّي حكم قضائي لسداد خمسة وعشرين جنيهاً. أعيَتْني الحيلةُ ولم أعرف من أين أحصل على المال، وفجأة خطرت ببالي فكرة، فتوسلت إلى صاحب الدَّيْن أن يعطيني مهلة لمدّة أسبوعين وطلبت إجازة من العمل، ثم قضيت الوقت في التسوّل في المدينة متنكراً، وتمكنت في خلال عشرة أيام من الحصول على ما يكفي من المال لسداد الدَّين.

حسناً، يمكنكم أن تتخيلوا كم هو صعب أن يرضى المرء بالعمل مقابل جنيهين في الأسبوع

في حين كنت أعلم أن بإمكاني أن أكسب المبلغ نفسه في اليوم إذا قمت بتلطيخ وجهي بالقليل من الألوان ووضعت قبّعتي على الأرض وجلست بلا حراك.

ودارت معركة طويلة بين كرامتي والمال، ولكن النقود فازت في النهاية، فتخلّيت عن الصحافة وجلست يوماً بعد يوم في الزاوية التي اخترتها في تجربتي الأولى، ورحت أثير شفقة الناس بشكل وجهي المروّع وأملأ جيبي بالعملات المعدنية. ولم يعرف بسرّي إلا رجل واحد هو حارس وكر حقير في زقاق سواندام استأجرت غرفة فيه، حيث كنت أستطيع الخروج كل صباح كمتسول حقير ثم تحويل نفسي إلى رجل حسن الملبس في المساء، وكنت أدفع لذلك الشخص (البحّار) مبلغاً جيداً مقابل الغرفة، ولذلك كنت أعرف أن سرّي سيبقى معه في أمان.

وجدت سريعاً أنني أوفّر مبالغ كبيرة، لا أعني أن أي متسول في لندن يستطيع أن يكسب سبعمئة جنيه في السنة (وهو مبلغ أقلّ من متوسط ما أناله من تسوّلي) ولكنني كنت أملك قدرات استثنائية في التنكّر، بالإضافة إلى سرعة بديهتي التي تحسّنت بالتدريب وجعلت مني شخصية مميّزة في المدينة.

وهكذا فقد انهالت البنسات عليّ بمختلف

فئاتها، وكان اليوم السيّئ هو الذي أفشل فيه في جمع جنيهين. وكلّما ازددت ثراء ازداد طموحي أكثر، فاشتريت منزلاً في الريف وتزوجت دون أن يشكّ أحدٌ في مهنتي الحقيقية، فقد عرفت زوجتي العزيزة أنني أعمل في المدينة ولكنها لم تعرف طبيعة عملي.

أما ما حصل يوم الإثنين الماضي فهو كما يلي:

كنت أرتدي ملابسي في غرفتي فوق وكر الأفيون بعد أن أنهيت عمل اليوم، وحين نظرت من النافذة رأيت -لدهشتي ورعبي- أن زوجتي تقف في الشارع وعيناها مثبّتتان عليّ مباشرة، فصرخت من الدهشة ورفعت ذراعي لأغطي وجهي، وأسرعت إلى البحّار كاتم أسراري أتوسّل إليه لكي يمنع أي شخص من الصعود إليّ. وقد سمعت صوتها في الطابق السفلي، ولكنني كنت أعرف أنها لن تستطيع الصعود، فأسرعت بخلع ملابسي وارتديت ملابس المتسول ووضعت الأصباغ والشعر المستعار، حتى إن عين الزوجة لم تكن لتستطيع أن تخترق مثل هذا التنكّر الكامل!

وعندها خطر على بالي أن من الممكن أن يتمّ تفتيش الغرفة وأن وجود ملابسي الأصلية قد يفضحني، ففتحت النافذة وأمسكت بمعطفي ورميته

من النافذة، وكان ممتلئاً بالعملات المعدنية التي كنت قد نقلتها من وقت قريب من الحقيبة الجلدية التي أحمل فيها إيرادي، فاختفى في نهر التيمز. عندها وبسبب عنفي انفتح جرح كنت قد أُصبت به في غرفة نومي في ذلك الصباح.

وكنت على وشك أن أرمي بباقي الملابس حين اندفع عدد من رجال الشرطة على الدرَج، وأعترف بأنني قد شعرت بالراحة بعدما وجدوني، لأنهم قبضوا عليّ بتهمة قتل السيد نيفيل سينت كلير بدلاً من أن يعرفوا أنني نيفيل نفسه.

لا أظن أن لديّ أي شيء آخر لأشرحه، فقد كنت مصمّماً على المحافظة على سرّية شخصيتي أطول فترة ممكنة، ولهذا السبب فضّلت أن يبقى وجهي قذراً. ولمعرفتي أن زوجتي ستكون في غاية القلق قمت بخلع خاتمي واستأمنت البحّار عليه في الوقت الذي لم يكن يراقبني فيه أي من رجال الشرطة، كما كتبت -على عجل- رسالة سريعة لزوجتي أخبرها فيها بأنه لا داعي للخوف والقلق.

قال هولمز: لم تصلها هذه الرسالة إلا أمس فقط.

- يا إلهي! لا بدّ أنها قضت أسبوعاً عصيباً.

قال المفتش برادستريت: كان رجال الشرطة يراقبون ذلك البحّار، ولذلك يمكنني أن أستنتج أنه ربما واجه صعوبة في إرسال الخطاب دون أن يلاحظه أحد، ومن المحتمَل أن يكون قد أعطاه لبحّار من زبائنه فنسي أمره لعدّة أيام.

هزّ هولمز رأسه ثم قال: هذا ما حدث، لا شكّ في ذلك. ولكن ألم تحاكَم من قبل بتهمة التسوّل؟

- عدة مرات، ولكن ماذا تمثل الغرامة بالنسبة إلى ما أجنيه من كسب؟

قال برادستريت: على أية حال يجب أن يتوقف الأمر عند هذا الحد، فإن الشرطة سوف تلتزم بالتكتم على هذا الأمر بشرط أن لا يبقى هيو بون على قيد الحياة.

- لقد أقسمت على ذلك بأغلظ الأيمان.

- في هذه الحالة فإن من المرجّح أن لا تُتخَذ أية إجراءات إضافية، ولكن لو قُبض عليك ثانية فسيتمّ فضح أمرك. أنا متأكد أننا ندين لك بالكثير لتوضيحك هذه المسألة يا سيد هولمز، وأتمنى لو أعرف كيف تتمكن من إحراز مثل هذه النتائج!

قال صديقي: لقد توصلت إلى حل هذه القضية

بالجلوس على خمس وسائد واستهلاك أوقية من التبغ!

ثم أكمل يقول: أظن -يا واطسون- أن بإمكاننا الوصول إلى شارع بيكر في موعد مناسب للإفطار لو انطلقنا الآن.

* * *

تمت